تفعيل القصدية التّداولية في الخطاب الأدبي

-خطابات البشير الإبراهيمي أنموذجا-

Activating the deliberative intentionality in the literary discourse

-the speeches of Al-Bashir Al-Ibrahimi as a model-

أمينة فريك

جامعة مرسلي عبد الله بتيبازة، الجزائر، aminafrik96@gmaile.com

تاريخ الاستلام: 2022/09/04 تاريخ القبول: 2022/12/15 تاريخ النشر: 2022/12/24

ملخص:

يُعدّ تجاوز الدّراسة اللسانية النّصية حدود البينة اللغوية الصّغرى –الجملة– إلى بنية لغويّة أكبر منها في التحليل–النّص– نُقلة نوعية أسهمت في إخراج النّص إلى حيّز الفعل والتأثير، ليصير مجموعة أفعال كلامية مُنجزَة من طرف المؤلّف، فخضع إلى الدّلالة القصدية التي حدّدت وضعه اللغوي، وعُدَّ بذلك فعلا إنتاجيا لفظيا قابلا للفهم والتأويل من طرف القارئ الذي يتفاعل معه مُحاولا فك الإبهام وفهم مقاصد الخطاب الأدبي وغاياته.

كلمات مفتاحية: القصدية، الخطاب، التأويل، الفهم.

Abstract:

The textual linguistic study transcends the limits of the small linguistic structure-the sentence- to a larger linguistic structure than in the analysis-the text- a qualitative shift that contributed to bringing the text into action and influence to become a group of verbal verbs completed by the author so he was subjected to the linguistic connotation that determined the thus, it was considered a verbal productive act that can be understood and interpreted by the reader, who interacts with him, trying to decipher the ambiguity and understand the purposes and objectives of the literary discourse.

Keywords: Intention, Discource, Interpretation, Understanding.

1. مقدمة:

لقد عرف الدّرس اللساني تحولات كبرى خلال فترة الستينيات من القرن العشرين، ما أدى إلى بروز حقل معرفي جديد أطلق عليه لسانيات النص **Linguistique Textuelle** حيث سعى إلى الانتقال من الإطار الضيق في التحليل إلى إطار أوسع منه والمتمثل في الخطاب، ونتيجة لهذا التغير كان لزاما على اللغويين تبني مناهج جديدة والاستعانة بآليات تسمح بتحليل النّظام اللغوي تبعا للخلفيات الإبستيمولوجية المنبثقة عن تلك المناهج، فكان الهدف الأسمى من ذلك هو الوقوف على بنية الخطاب والبحث عن الدلالات العميقة لعلاماته ورموزه.

إنَّ مسألة تَمَثُّل الوظيفة الرّئيسية للّغة في الخطابات الأدبية بمثابة مُعطى أساسي في طرح مقاصد المؤلف الذي يسعى بدوره إلى تطوير صورة الخطاب الفنية المُحمّلة بالأفكار و الأغراض والمعتقدات وتبليغها إلى المتلقي، بل والعمل على إقناعه أيضا، فيخلق بذلك عالَماً متحرّكاً أساس منشأه هو القصد الحاصل في ذاته الذي يحمله ملفوظ الخطاب. وبما أنّ المقاصد تعبر عن الفكر الذي تولّده ذات المؤلف في ذهنه، ثم توجّه الطرف الثاني (السامع) إلى إدراك معاني الخطاب فإنّه من الصعوبة أحيانا على المتلقي التمكن من فهمها وتأويلها كما قصد المؤلف بالضبط.

لذلك اهتمت الدّراسات الفلسفية القديمة بالقصدية واعتبرتها المفتاح الأول للولوج إلى عالم النّص، ومن أهم أعلامها جون سيرل الذي أشاد على أهميتها وظهر ذلك من خلال أبحاثه في نظرية أفعال الكلام حينما اعتبرها توجه الوعي نحو موضوعه. ونلاحظ أن الخلفية الفلسفية لمبدأ القصدية يحمل بعدا تداوليا واضحا انتقل به من مقاصد اللغة لفهم مختلف الخطابات الأدبية.

وفي هذا السياق يأتي هذا المقال ليقف عند بعض العناصر من خلال إثارة الأسئلة التالية: ما القصدية؟ وفيم تتمثل تجلياتها في تحليل الخطابات الأدبية؟ وهل هي عنصر

رئيسي في إنتاجها؟ وكيف يتمكن المؤلف من تحقيق مقاصده؟ وكيف يستطيع المتلقي باعتباره طرفا فعالا في العملية التخاطبية فهم وإدراك تلك المقاصد؟.

2. تعريف القصديّة

1.2 لغة:

القصدية مشتقة من الفعل "قصد يقصد قصداً وأصل (ق.ص.د) ومواقعها في كلام العرب كثيرة ومنها؛ الاعتزام، والتوجه، والنهوض نحو الشيء"[1]. إذن فالقصد عند العرب جاء بمعنى النية في الاعتزام أو التوجه نحو الشيء إذ كلّ هذه المفاهيم تمثل أفعال تُحصّل نيتها في العقل قبل الإنجاز. وقد وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى:"وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء الله لهداكم أجمعين"[2]؛ أي على الله بيان قصد السبيل الذي يمثل طريق الحق وهو الإسلام(تفسير الطبري).

2.2 اصطلاحا:

القصدية مصطلح من مصطلحات اللسانيات الحديثة وهو ترجمة للمصطلح الأجنبي Intentionnallité وتعد من أبرز ملامح البراجماتية اللغوية Pragmatique *[3]، وقد " أطلق المذهب التقليدي الفلسفي على صفة التوجه للموضوعات أو بالإشارة إليها والتحدث

عنها "اسم القصدية" Intentionality "[4] فالقصدية بالمنظور الفلسفي هي توجه الوعي نحو موضوعه بمعنى قدرة العقل على توجيه ذاته نحو الأشياء الموجودة في العالم الخارجي.

كما نجد اعتكافات علم الفينومينولوجيا واضحا في تعرضها للقصدية حين انطلق هوسرل في بداية بحثه من المقولة الديكارتية أنا أفكر إذا أنا موجود، وأكدّ على أهمية تبريرها فاعتبر حدّ "أنا أفكر كلّ معقد وهو نتيجة عملية تكوينية خضع لها الفكر"،[5] إذ لابد من البحث في طبقات "أنا أفكر" طبقة بعد طبقة للوصول إلى الإنية المتعالية وقد اعتبر برناتنو الإنية المتعالية هي "إنية" قصدية وقصديّتها هي التي تجعل من كلّ شعور، شعوراً فلا يبقى فاصل بين الذات والموضوع[6]. وعليه فقد اهتم فلاسفة اللغة العادية بمبدأ القصدية في تحليلهم للأداء اللغوي الخاص بالمتكلّمين وكيفية تحقيق عملية الفعل والتأثير في المتلقي فكان ظهور صبغة التداولية في هذا المحور واضح المعالم خاصة في ما يخص تحليل الخطابات الأدبية من المنظور اللساني النّصي القائم على دراسة استعمالات اللغة في سياقات أحوال المتكلمين.

وقد أشار سيرل من خلال أبحاثه في نظرية الأفعال الكلامية إلى القصدية وعرّفها على أنها: " تلك الخاصية للكثير من الحوادث العقلية التي تتجه عن طريقها الأشياء وسير الأحوال في العالم أو تدور حولها وتتعلق بها"[7]. إذن هي تصوّرات ذهنية تمثّل موضوعات سواء كانت حوادث مرتبطة بالعالم الخارجي مثل الحالة العقلية التي يكون بها الإنسان راغبا أو محباً أو متمنّياً...الخ.

أمّا في الدّراسات اللغوية والبلاغية فقد ركّز عليها الجاحظ والسَّكاكي وابن خلدون في دراساتهم للأحوال والمقاصد، فتعرض لها عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم حيث اتخذ القصدية عنصر أساسي لبناء نظريته. وقد أدرك ابن جني هذا في كتاب الخصائص حيث أشار إلى موضوع مقاصد اللغة ويعتبر "أول مؤلف عرض العلاقة الذاتية الطبيعية بين اللفظ ومدلوله، وأشار إلى مقاصد الحروف من خلال الترابط الذاتي بين الحرف البسيط وبين قيمته البيانية"[8].

وكان لزاما علينا أن نفرق بين مصطلحي "القصدية" و" القصد" ، إذ تعني القصدية التوجه التام، أما القصد فهو قصد المتكلم من فعل شيء معين، ويمكن إدراج هذا النوع الأخير إلى القصدية لأنه عبارة عن صورة من صورها ليس إلاّ.

3. القصديّة والمعنى

يعتبر المعنى ذلك "المفهوم الحرفي الذي ينطبق على العبارات وأفعال الكلام ولا ينطبق على الحالات القصدية"[9]، لأننا نستطيع البحث عن معنى ملفوظات معينة بينما لا نستطيع أن نبحث بالمعنى نفسه عن اعتقاد معين أو رغبة معينة. ولا يتحقق الفعل الكلامي إلا إذا صاحب الفعل المنطوق مجموعة من المقاصد التي تغذي أبعاده وتُعَيِّنُه. فالدّخول الأوّل الذي يفرضه نسق النص يعتبر كعمل أوّلي في امتلاك المعنى المشترك بين الفهم لدى المتلقي والقراءة الفاحصة للنّص، وقد أشار أبو هلال العسكري إلى الارتباط الوثيق الذي يجمع بين معنى النص وبين القصد الذي أراده المؤلف فقال:" المعنى هو القصد الذي يقع به القول على وجه دون وجه، وقد يكون معنى الكلام في اللغة ما تعلق به القصد"[10]،إذ

يعتبر الخطاب بذلك فارغ المحتوى إذا لم يتوفر فيه القصد فالأصل في الكلام هو ما يقصده المتكلم من منطوقه وليس الملفوظ في حدّ ذاته. وللمعنى مظهران عند ريكور" المعنى الذي يريد نقله قائل الخطاب والمعنى الذي ينقله الخطاب فعلاً"[11]، ويُفهم من ذلك أنّ المعنى هنا هو المحتوى الذي يخبرنا به المؤلف وهو "حاصل التأليف بين وظيفتين هما تحقيق الهوية والإسناد"[12]. حيث يرى أنّ حمل الخطاب لهاتين الوظيفتين شرط أساسي لتحليله.

وحول جدلية المتلقي والخطاب وأثر ذلك في استنطاق النّص والكشف عن جوهر المعاني الذي ترتكز عليه لغة الخطاب ويُصرّح نصر أبو حامد أنّ " تحديد المعنى المرجوح من المعنى الراجح في "الظاهر" أو "المؤول" تحديد مرهون بأفق القارئ وعقله"؛[13] لأنّ مستوى الغموض والوضوح يحيلنا إلى الرجوع لحتمية الإقرار والاعتراف بدور القارئ في اكتشاف محاور النص ودلالاته، فالنّص إذن قابل للتأويل وسيرورته التأويلية تمثل كل الأبعاد التداولية التي يشملها الخطاب الأدبي.

ولقد اهتم سيرل بالمعنى الذي يرمي إليه المتكلم على حساب اللفظ الحامل لفحوى القضية لأنّ معنى العبارات لا يتحدّد إلا بمعاني الكلمات المرتبة نحويا داخل البناء النّصي، وإنّ ما يعنيه المتكلم في منطوقه يعتمد على قصده في ذلك، وقد قسّم سيرل في هذا الصّدد القصدية إلى قسمين:

أ.قصدية باطنية أصلية: هي تمثيلات عقلية خاضعة لذواتنا ومستقلة عن الملاحظ كالرغبات والاعتقادات...الخ.

ب.قصدية مشتقة: هي قصدية تعتمد على الملاحظة مثل قصدية اللغة التي تعتمد على مجموع مستعمليها المالكين للمعنى ذاته الذي تملكه هذه اللغة وتمثله مثل: الخرائط والجمل...الخ.[14]

ويلاحظ من هذا كلّه أنّ المعنى اللغوي يخضع إلى سلطة المتكلم وليس إلى سلطة اللغة؛ لأنّ اللغة حاملة لمعاني عديدة لكن مقاصدها مخزنة في الذهن وعليه فالمؤلف بهذا المعنى فارض لسلطته وبمقاصده على اللغة. وقد ذهب كثير من العلماء إلى أنّ المقاصد هي المعاني الموجودة في الخطاب، وأنّ الألفاظ إنّما وضعت من أجل الوصول إلى معان معينة فكانت وسيلة لإدراكها فالمعنى هو المقصود، ولهذا فالقصد بوصفه معنى يدخل في إنجاز أفعال لغوية متعددة ضمن سياقات متنوعة فالاستفهام مثلا يمكن أن يدل على الطلب أو الإخبار...الخ ونذكر في الأبيات الإبراهيمية ما دلّ على قصد التوجيه والطلب في صيغ الاستفهام حينما قال:

أما آن لعشاق سلمى أن يقولوا: صحا القلب عن سلمي؟

أما آن للحالمين بالوحدة الفرنسية أن ينفضوا عنهم الأحلام؟

أما آن للمنتظرين أن يقطعوا حبل الانتظار؟

أما آن للمستعصمين بالأمل أن يريقوا صبابة الأمل؟

فعندما وجّه الإبراهيمي هذه الأسئلة إلى المتلقي لم يكن يقصد سؤالهم ولم ينتظر إجابة معينة منهم، بل كان الخطاب يلمح إلى الكثير من القضايا الوطنية والتي كان محورها الرئيسي استحالة تحقيق الوحدة الفرنسية التي مازال ينتظرها الشعب الجزائري آنذاك فهو إمّا قصد إخبار الشعب بخطط الاستعمار تحت ذريعة الوحدة الفرنسية والتي لن تتحقق وما هي إلا خطة محكمة من طرفه من أجل الاستحواذ على المزيد من الخيرات العربية، وإما قصد توجيه الشعب من حالة الغفلة والضعف إلى حالة المقاومة الوطنية. لذلك إنّ أهمية معرفة

مقاصد المتكلم وعدم الاكتفاء بالدلالات الحرفية للخطاب تُوصِل المتلقي أو تُقرّبه من المقاصد الصريحة لأنّ الخطاب جامع في الوقت نفسه بين المعنى الحرفي والمعنى التداولي.

4. القصديّة وآلية الفهم في الخطاب الأدبي

لا شكّ في أنّ المسار التّواصلي الذي يتحقق من خلال كل عمل لفظي أدبي يفرض وجود مجموعة من الدّلالات المُضمّنة في الملفوظات الكلامية التي تحاكي بدورها حدثاً معينا يُتصوَّرُ في ذهن القارئ كبيئة لغوية يجب إدراكها من أجل الكشف عن المعنى، لكن الخطاب قد يزداد غموضا عندما تتراكم مُتضمناته ليقع اللبس، ما يجعل القارئ غير قادر على فهم مقاصد المتكلم، ففي أغلب الأحيان " لا يكتفي الإنسان بمظاهر الكلمات عند التّعامل مع النّاس، ولكن يتساءل أحيانا عن مقصد هذه الكلمة"،[15] فتؤدي بذلك تلك الدّلالات المضمرة إلى حصول التعذّر في الفهم، وتشكّل حاجزا يبعد القارئ عن الخطاب فيصبح التواصل متعذرا في حالة عدم افتراض أنّ ذلك القارئ قد اكتسب مجموعة من الأخبار. وبهذا تحاول القصدية في هذه المرحلة خلق جوّ ديناميّ يساعد المتلقي على مواصلة استعمال النّص كوضع لغوي حيّ يُمارس فيه نوع من التفاعل فيقترح "تأويلا يعطي للمقروء "معنى" يجعله في آن واحد ذا معنى بالنسبة لمحيطه الفكري الاجتماعي– السياسي، وأيضا بالنسبة لنا نحن القارئين"،[16] حيث إنّ الدّلالات التي يتجاوزها المتلقي بدوره مؤولا تعمل على بناء علاقة تجمع بين أطراف الخطاب الأدبي وتعميق الرؤية فيه من خلال عمليات ذهنية يقوم بها المتلقي أثناء كشفه لمقاصد المتكلم.

ولا نستطيع الإمساك بمعاني النصوص إلا بالالتفات إلى السياق الذي يساهم بدوره تحقيق كفاية قصدية دلالية والاستعانة بقوانين الخطاب المتمثلة في مبادئ التعاون التي جاء بها غرايس لأن خضوع المتلقي لمقاصد المخاطَب هو ببساطة البحث في تلك الأحكام الأربعة التي اعتبرت بعد ذلك قوانين تحكم في بناء الخطاب بشكل عام، وقد صرّح ديكرو في هذا الصّدد أنّ "عملية تأويل الملفوظ تنطلق من التّسليم بأن المتكلم يعبر عن أفعال كلامية صريحة وحرفية"[17]، هذا ما يجعل القارئ في أشد الحاجة للرجوع إلى السياق من أجل حسم تأويله ومعرفة قصد المتكلم من هذه الأفعال الكلامية ويتوصّل بالتحليل الذهني إلى التفريق بين مقاصد الملفوظات، هل هي مجرد عبارات حرفية أم أفعال إنجازية؟ وهذا يشمل ما تم تناوله في النقطة السابقة عند حديث الإبراهيمي عن الوحدة الفرنسية.

وتدخُّل القصدية أثناء عملية توليد الدّلالة في الخطاب كاف لحصر تأويلات المتلقي في زاوية وجعلها قريبة من المقصد الحقيقي للمتكلم والتحكم في الخطاب بشكل أكبر. ومما هو معروف عن البشير الإبراهيمي أنّ البنية اللغوية لخطاباته تحمل أسرارا عميقة وهذا يجليه السحر البياني الذي يأخذ من النحو العربي شروحه ومن المجاز البلاغي وضوحه ومن الفقه الديني طروحه، ليبعث في خطابه دقة وفعالية أكبر، ولكن في المقابل يملأه سيعتري معضلة الفهم اليسير خطابه الناتج عن كثرة استعمال الإيحاءات اللغوية التي لها قصد معين من توظيفها في أساليبه المتنوّعة.

إذن يمكننا أن نتساءل في هذا الصدد هل يستطيع القارئ العادي إدراك هندسة هذه العبارات وفلسفة رموزها؟

إنّ الجواب على هذا السؤال يقتضي وجود عامل مهم في فك الغموض الذي يملأ خطابات الإبراهيمي إن كانت خطاباته تتميز عن غيرها بالحبك الفني البليغ، ألا وهو التكوين الثقافي، فالعائق المعرفي هو الذي يصطدم به المتلقي وفاقد الكفاءة العلمية في

قراءته للنص الإبراهيمي، ومن أهم كتاباته التي لقيت صدى بعيد على كل من المستويين الوطني والدولي نذكر: "سجع الكهان، القضية ذات الذنب الطويل، عادت لعترتها لميس، الشك في الإيجاب نصف السلب، إبليس ينهى عن المنكر، كلمات مظلومة"[18]، لذلك يجب أن تُقرأ كل مقالاته بعقل مفتوح، وقريحة علمية مزوّدة بمخزون فكري وثقافي خاص، وإنّ من متطلبات هذه الاستعدادات، ضرورة الاستعانة بقواميس موسوعية متعددة الاختصاصات من أجل التغلب على ظاهرة الإبهام وعقبة الفهم[19]، فتمكُّن القارئ من لغته الأم يعدّ عامل مهم في إزالة الغموض الأدبي عن مختلف الخطابات التي يواجهها مهما صعبت تراكيبها اللغوية.

5. القصديّة وقضيّة التأويل

لطالما شكّل الخطاب الأدبي تلك العلاقة القائمة بين كينونته النّصية والدلالات المتشابكة فيه، وبين التأويل كمنطلق يعتمد عليه القارئ من أجل الانتقال من نص مغلقٍ إلى نصّ مفتوح يخدم الأفعال الإنجازية، التي تحتك ببعضها البعض مكوّنة بذلك قوة تأثيرية لا يدركها إلا المؤوّل حينما يتماثل لخدمة النّص من أجل الكشف عن مقاصده الخفية، وغالبا ما نجد وضعية الخطاب مُنشَّطة بشكل يسمح لعباراته – الخطاب – حمل أكثر من معنى واحد، الأمر الذي يجعل القارئ مبدعا في الوقت نفسه فيدخل في مرحلة أسميها أنا بمرحلة –ملئ الفراغ التأويلي– ، فبأفكاره ومعرفته الذاتية بالنّص الذي أمامه يجد نفسه أمام متاهة لغوية يطرح من خلالها العديد من التساؤلات حول قصدية المتكلم، وهل حقا هذا ما أراد المتكلم إيصاله أم له غرض آخر من هذا القصد؟. فبمجرّد قراءة المتلقي لخطاب البشير

الإبراهيمي الذي يخاطب فيه المسلمين بصفة عامة من خلال تناوله القضية الفلسطينية والذي يقول فيها:

"إنّ فلسطين وديعة محمد عندنا، وأمانة عمر في ذمتنا، وعهد الإسلام في أعناقنا، فلئن أخذها اليهود منا ونحن عصبة إنّا إذا لخاسرون". [20]

سيحاول القارئ وضع بعض الافتراضات الجديرة بأن تصل إلى قصدية الشاعر والتي تحيله إلى عدد لا متناهي من التأويلات والدلالات، نظرا للاستفهام الذي يُثار في نفس القارئ والذي سيدفعه إلى وضع جملة تأويلات تقرّبه من المعنى المقصود. وإذا ما نظرنا إلى عبارات الإبراهيمي نجد أنّه كان من الذين يتمتعون بالعزة والغيرة على الوطن العربي وهذا يتجلى في كلامه حين اعتبر القضية بمثابة وديعة الرسول صلى الله عليه وسلم ووجب على كلّ مسلم الحفاظ عليها ومنع كل من يحاول تدنيس أراضيها، وإذا أردنا تأويل خطابه نجد أنفسنا بين عدّة إحالات رمزية أضفت سموّا لا يدرك أبعاده إلا من ذاق حلاوة اللغة العربية فاعتماده على القرآن الكريم كان كاف لجعل خطابه أسمى ويظهر ذلك من خلال التوظيف الدقيق الذي يدمج به عباراته في الدفاع عن قضاياه.

والحقيقة أنّ ارتباط المعاني بمقاصد المتكلم يتجاوز مرحلة تأويل القارئ عن طريق استحضار القصدية التي" إمّا ترفض التأويل أو توقفه في نقطة حرجة لا يجوز تخطيها"[21] وذلك بالعودة إلى الوظيفة السياقية للخطاب التي تتمثل في تقليص أكبر عدد ممكن من التأويلات للتخلّص من سوء الفهم وفك الغموض والإبهام الذي قد يؤثر على فعالية التّواصل بين منتج النّص ومتلقيه.

فعند العودة إلى خطاب البشير الإبراهيمي يجد القارئ نفسه في متاهة تأويلية لا يستطيع الخروج منها فيعطي أكبر قدر من الاحتمالات التي قد تغذي تفسيره والتي لها علاقة بقصدية الكاتب، فقد يفهم القارئ أنه المقصود بالكلام لأنه بالدرجة الأولى شخص عربي وهو معني بالخطاب، كما قد يصل إلى عدّة تأويلات عميقة ندرجها كالآتي:

- قداسة الأراضي الفلسطينة وواجب الحفاظ على عروبيتها من التدنيس الغربي.
- فلسطين قضية كل جزائري وكل عربي وكل مسلم.
- محاولة استنهاض الأمة العربية والعزة الإسلامية عن طريق التذكير والتوجيه.
- توعية الشعب بضرورة الوحدة، وإشعار المخَاطب أنّ في رقبته أمانة إن لم يحافظ عليها اغتصبوها أمام مرأى عينيه.
- تخويف العرب من التخطيط الغربي الذي سيبقى منتصرا ما دمنا نرفض مواجهة الواقع.

وفي نفس الوقت يجب الإشارة إلى أنّ المؤلف يرسل خطابه حسب توقعات المرسل إليه، إذ لابد له أن يأخذ بعين الاعتبار بعض الافتراضات أو التأويلات التي سيصل إليها القارئ بعد فهمه للخطاب وبالتالي ردود أفعاله لأنّ هذه الاعتبارات قد تؤثر سلبا على عملية الفهم وتؤذي في نهاية المطاف إلى تضييع المعاني.

6. القصديّة والتواصل في الخطاب الأدبي

لطالما شكّل الخطاب الأدبي تلك العلاقة القائمة بين كينونته النّصية والدلالات المتشابكة فيه، وبين التأويل كمنطلق يعتمد عليه القارئ من أجل الانتقال من نص مغلقٍ إلى نصّ مفتوح يخدم الأفعال الإنجازية، التي تحتك ببعضها البعض مكوّنة بذلك قوة تأثيرية لا يدركها إلا المؤوِّل حينما يتماثل لخدمة النّص من أجل الكشف عن مقاصده الخفية، وغالبا ما نجد وضعية الخطاب مُنشَّطة بشكل يسمح لعباراته – الخطاب – حمل أكثر من معنى واحد، الأمر الذي يجعل القارئ مبدعا في الوقت نفسه فيدخل في مرحلة أسميها أنا بمرحلة

–ملئ الفراغ التأويلي– ، فبأفكاره ومعرفته الذاتية بالنّص الذي أمامه يجد نفسه أمام متاهة لغوية يطرح من خلالها العديد من التساؤلات حول قصدية المتكلم، وهل حقا هذا ما أراد المتكلم إيصاله أم له غرض آخر من هذا القصد؟. فبمجرّد قراءة المتلقي لخطاب البشير الإبراهيمي الذي يخاطب فيه المسلمين بصفة عامة من خلال تناوله القضية الفلسطينية والذي يقول فيها:

"إنّ فلسطين وديعة محمد عندنا، وأمانة عمر في ذمتنا، وعهد الإسلام في أعناقنا، فلئن أخذها اليهود منا ونحن عصبة إنّا إذا لخاسرون". [22]

سيحاول القارئ وضع بعض الافتراضات الجديرة بأن تصل إلى قصدية الشاعر والتي تحيله إلى عدد لا متناهي من التأويلات والدلالات، نظرا للاستفهام الذي يُثار في نفس القارئ والذي سيدفعه إلى وضع جملة تأويلات تقرّبه من المعنى المقصود. وإذا ما نظرنا إلى عبارات الإبراهيمي نجد أنّه كان من الذين يتمتعون بالعزة والغيرة على الوطن العربي وهذا يتجلى في كلامه حين اعتبر القضية بمثابة وديعة الرسول صلى الله عليه وسلم ووجب على كلّ مسلم الحفاظ عليها ومنع كل من يحاول تدنيس أراضيها، وإذا أردنا تأويل خطابه نجد أنفسنا بين عدّة إحالات رمزية أضفت سموّا لا يدرك أبعاده إلا من ذاق حلاوة اللغة العربية فاعتماده على القرآن الكريم كان كاف لجعل خطابه أسمى ويظهر ذلك من خلال التوظيف الدقيق الذي يدمج به عباراته في الدفاع عن قضاياه.

والحقيقة أنّ ارتباط المعاني بمقاصد المتكلم يتجاوز مرحلة تأويل القارئ عن طريق استحضار القصدية التي" إمّا ترفض التأويل أو توقفه في نقطة حرجة لا يجوز تخطيها"[23] وذلك بالعودة إلى الوظيفة السياقية للخطاب التي تتمثل في تقليص أكبر عدد ممكن من

التأويلات للتخلّص من سوء الفهم وفك الغموض والإبهام الذي قد يؤثر على فعالية التّواصل بين منتج النّص ومتلقيه.

فعند العودة إلى خطاب البشير الإبراهيمي يجد القارئ نفسه في متاهة تأويلية لا يستطيع الخروج منها فيعطي أكبر قدر من الاحتمالات التي قد تغذي تفسيره والتي لها علاقة بقصدية الكاتب، فقد يفهم القارئ أنه المقصود بالكلام لأنه بالدرجة الأولى شخص عربي وهو معني بالخطاب، كما قد يصل إلى عدّة تأويلات عميقة ندرجها كالآتي:

- قداسة الأراضي الفلسطينة وواجب الحفاظ على عروبيتها من التدنيس الغربي.
- فلسطين قضية كل جزائري وكل عربي وكل مسلم.
- محاولة استنهاض الأمة العربية والعزة الإسلامية عن طريق التذكير والتوجيه.
- توعية الشعب بضرورة الوحدة، وإشعار المخَاطب أنّ في رقبته أمانة إن لم يحافظ عليها اغتصبوها أمام مرأى عينيه.
- تخويف العرب من التخطيط الغربي الذي سيبقى منتصرا ما دمنا نرفض مواجهة الواقع.

وفي نفس الوقت يجب الإشارة إلى أنّ المؤلف يرسل خطابه حسب توقعات المرسل إليه، إذ لابد له أن يأخذ بعين الاعتبار بعض الافتراضات أو التأويلات التي سيصل إليها القارئ بعد فهمه للخطاب وبالتالي ردود أفعاله لأنّ هذه الاعتبارات قد تؤثر سلبا على عملية الفهم وتؤذي في نهاية المطاف إلى تضييع المعاني.

7. الخاتمة

وتأسيسا على ما سبق يمكننا القول بأنّ معيار القصدية الذي نشأ في حضن الفلسفة الظاهراتية والتي اتخذته أساسا أوليا لبناء مسالكها المعرفية حول الذات والموضوع، يظلّ مفهوما وُجّه في الحقل التداولي وعُدّ شرطا ضروريا لفهم مضامين الخطابات الأدبية وتأمين

الفهم وتحصيل المعنى العام لها، ومن ثم تكوين مفاهيم جديدة حسب ما تقتضيه مقاصد المؤلف وبذلك نكون قد توصلنا إلى مجموعة من النقاط نوجزها فيما يلي:

- القصدية مبدأ قديم الاستعمال ظهرت بوادره في الفلسفة الظاهراتية وانتقل بعد ذلك من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة ووظّف في الجانب التداولي حيث ظهر جليا في نظرية الأفعال الكلامية.
- إن حمل الخطاب للملفوظات اللغوية الدلالية يُسهم في إدراج القصدية كوسيلة لمعرفة التراكيب اللغة وإيجاد العلاقة بين الدال والمدلول، بل ويمتد إلى استخدامها داخل الخطاب أيضا.
- القصدية هي أحد العوامل المساعدة في تحليل الخطاب الأدبي ومعرفتها ضرورية في العملية التداولية كونها مبدأ إجرائي يتعلق بظروف استخدام اللغة الخاضعة للقصد.
- تعد القصدية محور العملية التواصلية وعامل رئيسي في استعمال اللغة وفك الغموض الذي يعتري الخطاب وتأويله.

8. الهوامش

01.كروم أحمد: مقاصد اللغة وأثرها في فهم الخطاب الشرعي،عمان/الأردن،دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، 2015،ص15.

02.سورة النحل: الآية09 .

03. سيرل جون:القصدية–بحث في فلسفة العقل–،تر:أحمد الأنصاري،لبنان/بيروت،دار الكتاب العربي، د.ط.،2009،ص21.

04. هوسرل أدموند: تأملات ديكارتية،تر: شيخ الأرض،لبنان/بيروت،دار بيروت للطباعة والنشر ،د.ط،1958 ص17.

05. ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

06.وشن دلال: القصدية من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة،مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية،العدد السادس،2010،ص03.

07.كروم أحمد: مرجع سابق،ص27.

08.سيرل جون: مرجع سابق ، ص52.

09.العسكري أبو هلال: الفروق في اللغة،تر:جمال عبد الغني مدغمش،ط1، 2002،ص33.

10. ريكور بول: نظرية التأويل–الخطاب وفائض المعنى–،تر:سعيد الغانمي، الدار البيضاء/المغرب،المركز الثقافي العربي،ط2006،2،ص14.

11.المرجع نفسه: ص38.

12. نصر حامد أبو زيد: القراءة التأويلية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية–جامعة القصيم، المملكة العربية السعودية، الرياض،دار وجوه للنشر والتوزيع، 1435م،ص52.

13.شتيح صليحة: التداولية بين العملية التواصلية ومقاصد الخطاب،تيزي وزو، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، 2014،ص198.

14.الحاج حمو ذهبية: لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، المدينة الجديدة،تيزي وزو/الجزائر، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع،د.ط،2012،ص194.

15. مفتاح محمد: النص:من القراءة إلى التّنظير،الدار البيضاء/المغرب، شركة النشر والتوزيع–المدارس–،ط1، 2000،ص57.

16.لحمداني حميد: من قضايا التلقي والتأويل،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط،مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء،ط1، 1994،ص09.

17: الإبراهيمي أحمد طالب:آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،لبنان/بيروت،دار الغرب الإسلامي،ط1 ،1997،ص09.

18.ينظر:المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

19.الإبراهيمي أحمد طالب:مرجع سابق،ص08.

20.لحمداني حميد:مرجع سابق،ص09.

21. دايك فان: علم النّص–مدخل متعدد الاختصاصات،تر:سعيد حسن بحيري،دار القاهرة للكتاب،ط1، 2001،ص123.

22.بلخير عمر:مقالات في التداولية والخطاب،تيزي وزو/الجزائر،دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع،2013،ص66.

23شتيح صليحة:مرجع سابق،ص194.